"مفهوم الشعرية في التراث العربي القديم"

Poetry in the Ancient Arab Heritage Concept

م.م. زينة عبد الله خميس العقابي
جامعة واسط- مركز الحاسوب والمعلوماتية

الخلاصــة

من الواضح ان بشر بن المعتمر يرجع الجمال في العمل الأدبي إلى ارتباط اللفظ بالمعنى٠ونجد ان موقف الجرجاني يؤدي إلى القول أن نظرية النظم تستند إلى النحو كأساس علمي، من منظور عبد القاهر الجرجاني : جمال المعنى واثباته والثاني : هو اكتشاف الشعرية لا يتم بالسماع وإنما يجب النظر إلى النص بالقلب ، فضلاً عن الاستعانه بالفهم٠ ولما لهذا المبدأ من أثر في النقد العربي القديم والبلاغي البالغ الأهمية في تحديد طبيعة الأسلوب، فصياغته قد اقتضت الوعي بمفهومين مترابطين نرى أن عبد القاهر الجرجاني سبق بهما جل ما جمعته الشعرية من تصورات أدى إلى صياغة الفكر النقدي والبلاغي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في التراث العربي القديم وغيره من نقادنا العرب.

كلمات مفتاحية: الشعرية، التراث العربي، نظرية النظم، المعاني ، الألفاظ .

Abstract

It is clear that the beauty of Bishr ibn al-Mu'tammar in literary work is due to the association of the word with the meaning.

We find that the position of Al-Jarjani is a position that leads to the statement that the relationship between the word and the meaning is no longer a binary relationship between two poles, the signifier and the signified, but has become a relationship that represents based on the cohesion between them within an organic unit that is the systems.

Since this principle has an impact on Arab criticism and rhetoric of great importance in determining the nature of the style, its formulation required awareness of two interconnected concepts. Arabs in the ancient Arab heritage.

Key words: poetry, Arab heritage, systems theory, meanings, vocalizations.

The theory of systems is based on grammar as a scientific basis. What is important in poetry from Abdul Qaher al-Jarjani's perspective is to prove the meaning. The second is to discover the features of poetry that is not done by hearing. Rather, the text must be viewed with the heart and avoiding the use of reason and thought, and understanding must be sought.

المـقدمـــة

لابد من التنبه إلى أن الإنسان في العصور القديمة قد عرف الشعر ، لذا فأصول الشعر قديمة قدم الإنسان على الأرض وكانت الاهتمامات بهذا الفن كثيرة عند الغرب كما عند العرب، حتى أن مفهوم الشعر كان واحدا مقارنة بما هو ليس شعر ،أي النثر كجنس مقابل للشعر، ولعل ذلك عائد إلى أن كلا الجنسين ينتمي إلى المنطوق أو الملفوظ البشري، ولكن الشعر عند كل الأمم يعد استثناء باعتبار أن النثر هو القاعدة، وهو الأقرب الى الكلام المتداول لدى العامة من الناس، لذلك كان الشعر أكثر تمردا من طبيعة الكلام المعتادة عند أمة من الأمم على الرغم من استعماله لذات اللغة التي يستعملها النثر،نجد ان الأدب او الشعر الهام او نبوغ، وتارة اخرى نجدهما صورة تعكس المجتمع والعصر، وتارة اخرى نجد الادب مشجعا للتحليل النفسي، فاشتركت هذه الاجابات في مجملها بجوانب خارجية عن الأدب، ونتيجة التعديل الذي اصاب نظرية الأدب بشكل عام ؛بالانتقال من الخارج الى الداخل في مقاربة ماهية الادب تكرس حديثا، ونتج عنه مفهوم الشعرية .

أن مفهوم الشعرية قد أسس في النقد العربي منذ زمن بعيد ، فالمتأمل في كتابات النقاد العرب القدماء يجد أنهم قد أسسوا لعالم الشعرية من خلال بحثهم فيما يميز بين مستويات الكلام، وذلك من خلال السؤال

الذي طرحه النقاد العرب في مختلف مراحل النقد العربي حتى يومنا هذا .

وقد تناولت في هذه الدراسة بعض المفاهيم والملامح القديمة في الشعرية عند بشر بن المعتمر مرورا بالجاحظ في كتابيه: البيان والتبيين والحيوان ، وعبد القاهر الجرجاني في مؤلفيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز.

المبحث الأول

مفهوم الشعرية عند بشر بن المعتمر

لقد تنبه بشر بن المعتمر قبل غيره من النقاد إلى قضية النظم فيقول: "إياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك، فالتعقيد من سمات اللفظ والمعنى معاً، وهو يفسد الصورة الأدبية، ويخلّ بالتعبير، ويفقد روح التأثير فيها" ويقول بعد ذلك: "ومن أراغ معنى كريمًا فليلتمس له لفظًا كريمًا، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما(١).

فمن الواضح ان الجمال عند بشر في العمل الأدبي يرجع إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى فلا بدّ للمعنى الكريم من لفظ كريم ويريد بذلك أن يفصح عن العلاقة بينهما.

فنجد بشر بن المعتمر قد تحدث عن مناسبة الكلمة لمكانها في الكلام، فيقول: "فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك، ولا تسنح لك عند أول نظرك، وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة لم تقع موقعها، ولم تعدّ إلى قرارها، إلى قوله، أو جريت من الصناعة على عرق" (٢).

وبذلك نجد أن صياغة الشعر ليست سهلة، بل تحتاج الى تفنن وبراعه، ويقول بشر في تلائم اللفظ مع المعنى : "ومن أراد معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ... إلى قوله: إن يكون لفظك رشيقًا عذبًا، وفخمًا سهلًا، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً(٣). وبهذا يكون أبو سهل بشر بن المعتمر من اوائل النقاد العرب الذين سجلوا هذه القضية النقدية، في التراث النقدي العربي القديم .

ويأتي الجاحظ بعد بشر ليرد الجمال والبلاغة إلى تخير الألفاظ، وجودة السبك والتلاحم فما بينها فيقول: "والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير"(٤).

ونجد الناقد ابن طباطبا يسير على ما جاء به ابن المعتمر فيقول: "إذا أراد الشاعر بناء قصيدة، فأحضر المعني الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرًا، أو أعدَّ له مما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه ... فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه ابتدأ وعمل فكره في

شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر، وترتيب لفنون القول فيه، بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه على ما بينه وبين ما قبله "[٥].

ويهتم الآمدي في النظم باللفظ والمعنى فيقول: "وليس الشعر عند أهل العلم به إلا حسن التأنّي، وقرب المأخذ، واختيار الكلام، ووضع الألفاظ في مواضعها، وأن يُورد المعنى اللفظ المعتاد فيه المستعمل في مثله ... والبلاغة إنما هي إصابة المعنى، وإدراك الغرض بألفاظ سهلة عذبة مستعملة سليمة من التكلف، لا تبلغ الهذر الزائد على قدر الحاجة.... وينبغي أن تعلم أن سوء التأليف ورديء اللفظ يذهب بطلاوة المعنى الدقيق ويفسده ويعميه حتى يحتاج مستمعه إلى تأمّل ... وحسن التأليف وبراعة اللفظ يزيد المعنى المكشوف بهاء وحسنًا ورونقًا، حتى كأنه أحدث فيه غربة لم تكن وزيادة لم تعهد"[٦] .

ويؤلف ابن رشيق باب اللفظ والمعنى، ليربط بينهما كما ربط بشر بن المعتمر، يقول ابن رشيق: "أن الجمال لا يكون إلا في النظم، لا في اللفظ وحدِّه ولا في المعنى وحده، ويترتب على ذلك أن تكون الصورة الشعرية في العلاقة التي تتم بين الألفاظ وتكشف عن المعنى" [٧].

يقول عبد القاهر": "أن الألفاظ التي هي أوضاع اللغة، لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد، وهذا علم شريف، وأصل عظيم" [٨].

وهذا ما وضحه الجرجاني حيث انتهى إليه الحديث عن النظم والصورة الأدبية، بعد أن بدأه بشر بن المعتمر، ليبلغ عبد القاهر فيه الغاية، ويرسي قواعد النظم ومفهومه ويحدّد معالم التصوير الأدبي.

المبحث الثاني

مفهوم الشعرية عند عبد القاهر الجرجاني

يوضح الجرجاني نظريته في كتابه دلائل الاعجاز، والتي أصبحت من أبلغ المفاهيم والنظريات في تاريخ النقد العربي، التي نجد من خلالها ان النظم هو النحو في جوهره ليس فقط في الاعراب، وإنما مع مراعاة (المعنى) في الكلام، قائلا : "فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا وخطؤه إن كان خطأ إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ووضع في حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه، واستعمل في غير ما ينبغي له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[٩].

من خلال ذلك نجد أن النظم هو النحو في جوهره ليس فقط في الإعراب، وإنما مع مراعاة (المعنى) في الكلام.

يقول: "وأعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علماً لا يعترضه الشَّك، ألا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يتعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب تلك.... وإذا كان كذلك فعلينا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها ما معناه وما محصوله"(١٠) .

ويقول: "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله.... إنك ترى الرجل قد تهدى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من التخير والتدبر في أنفس الأصباغ، وفي مواقعها ومقاديرها، وكيفية مزجها لها وترتيبه إياها إلى ما لم يهتد إليه صاحبه، فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب، وصورته أغرب، وكذلك حال الشاعر والشاعر في توخييهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النظم.... وسبيل الكلام هو سبيل الصيغة والتصوير، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه، سبيل الشيء الذي يقع عليه التصوير والصوغ كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالاً إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة، أو الذهب الذي وقع عليه العمل والصنع(١١).

"كذلك محال إذا أنت تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه، وكما أننا لو فضلنا خاتمًا على خاتم، بأن يكون فضة هذا أجود أو فضته أنفس، لم يكن ذلك تفضيلًا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتاً على بيت من أجل معناه لا يكون تفضيلًا له من حيث هو شعر وكلام، وهذا قاطع فاعرفه"(١٢) .

ولم يقصد عبد القاهر توخي أحكام النحو فقط وإنما قصد نظم الكلام "وإذا كان الإلمام بهذا المنهج اللغوي من شأنه أن يفضي إلى الحديث عن السياق الجمالي لنظرية النظم بكل مظاهره الشعرية، فإن الدافع إلى ذلك هو السياق المعرفي–النهضوي بكل شروطه التاريخية التي استدعت قيام هذه النظرية بدافع إحساس الجرجاني بضرورة إحياء اللغة بوصفها تشكل محور النشاط الفكري الذي يرتقي في ظله الإنسان من مرتبة الجماد إلى مرتبة الحي الناطق. لذلك كانت الحاجة ماسة إلى منهج كفيل بتحليل لغة المعرفة تحليلا يتم بمقتضاه الكشف عن معاني المعارف التي تكمن وراء المباني" (١٣).

ويقصد بتلك المعاني "التي تعبر عنها ومن ثم كانت أهميتها وما لها من صدارة على الألفاظ"(١٤).

وبذلك نجد أن عبد القاهر لم يقتصر على اللفظ الذي كان سائدا في ذلك الوقت، ففي قوله "بالنظم الذي هو (صورة المعنى) في الكلام. "الألفاظ خدم المعاني، وأن المعاني هي المالكة سياستها"[١٥].

فنجد ان موقف الجرجاني موقف يفضي إلى القول بأن العلاقة بين اللفظ والمعنى لم تعد علاقة ثنائية بين قطبين هما الدال والمدلول، وإنما صارت علاقة تمثل قائم على التلاحم بينهما ضمن وحدة عضوية هي النظم.

ونظرا لما لهذا المبدأ من أثر نقدي بالغ القيمة في تحديد طبيعة الأسلوب ووظيفته، القائم بين اللغة وفاعل الكلام، فالكلام الذي يحَول بمقتضى هذه العلاقة إلى مبدع حاذق مادامت أحوال اللغة ترجع "إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"[١٦] .

والمقصود بالتمثل الذي عبر عنه عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع من أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز قائلا: "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً، أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده"[١٧].

فنلاحظ تسلسل هذه المصطلحات كما في قوله: "وكذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها ببعض..."[١٨].

و لما لهذا المبدأ من أثر في النقد العربي البالغ الاهمية في تحديد طبيعة الأسلوب ففي قوله: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق"[١٩].

بهذا نجد عبد القاهر يستعمل مصطلح الكلام، فقول : "أن يؤتى المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته، ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه، وأتم له وأحرى بأن يكسبه نبلا، ويظهر فيه مزية"[٢٠] .

وبذل نرى أن عبد القاهر الجرجاني يعطي شكلاً نقدياً متكاملاً في الشعرية، فهو يرى أن النظم هو الأساس في معرفة الشعرية والكشف عن شعرية الكتابة ، ويعرف النظم على أنه: "تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها بسبب من بعض"[٢١].

وهذا يعني ترتيب الكلمات على حسب ترتيب المعاني في الخاطر والنفس ، بحيث تتناسب

دلالاتها على الوجه الذي اقتضاه العقل وتتلاقى معانيها ، وبهذا لا ينظر إلى اللفظ بذاته في النظم ، " لا تتفاضل من حيث هي ألفظ مجردة ، ولا من حيث هي كلم مفردة ، وإنما تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها ، فنحن كثيراً ما نرى كلمة تروقنا وتؤنسنا في موضع ، ثم نراها بعينها لتثقل علينا وتوحشنا في موضع آخر "[٢٢] .

كذلك في النظم لا يُنظر إلى المعنى في ذاته، فسبيل المعاني " هو سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش ... وإنما المزية في حسن التخير ومعرفة موضع الكلم ، وإذا كان الكلام بمثابة التصوير والصياغة وكان المعنى بمثابة الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه – كالفضة والذهب يصاغ منها خواتم أو سوار فإن الحال إذا أردنا التقويم أو النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل ورداءته ، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة ، أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة ، كذلك من المحال ، إذا أردنا أن نعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه"[٢٣].

فنلاحظ أن الشعرية من منظور عبد القاهر الجرجاني هي : حضور المعنى والثاني : هو اكتشاف ملامح الشعرية بالنظر للنص بالقلب والفكر، اضافة الى الاستعانة بالفهم.

الخاتـمــة

١- نجد أن الأدب او الشعر الهام أو نبوغ، وتارة اخرى نجدهما صورة تعكس المجتمع والعصر، وتارة اخرى نجد الادب مشجعا للتحليل النفسي.

٢- ان بشر بن المعتمر يرجع الجمال في العمل الأدبي إلى ارتباط اللفظ بالمعنى.

٣- أن موقف الجرجاني يؤدي إلى القول أن نظرية النظم تستند إلى النحو كأساس علمي.

٤- لم يقصد عبد القاهر توخي احكام النحو فقط وانما قصد نظم الكلام.

٥- نرى أن عبد القاهر الجرجاني سبق بهما جل ما جمعته الشعرية من تصورات مما أدى إلى صياغة الفكر النقدي والبلاغي في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني في التراث العربي القديم وغيره من نقادنا العرب.

٦- كذلك في النظم لا ينظر إلى المعنى في ذاته، فسبيل المعاني هو سبيل الأصباغ التي تعمل منها الصور والنقوش .

٧- نرى أن عبد القاهر الجرجاني يعطي شكلاً نقدياً متكاملاً في الشعرية، فهو يرى أن النظم هو الأساس في معرفة الشعرية .

الهوامش:

(١) البيان والتبيين ،الجاحظ:١٣٦.
(٢) المصدر نفسه: ١٩.
(٣) البيان والتبيين ،الجاحظ: ١٩.
(٤) الحيوان ، الجاحظ،: ٤-٣.
(٥) الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ٩.
(٦) الآمدي، الموازنة بن ابي تمام والبحتري: ١٧٣ .
(٧) العمدة ،ابن رشيق القيرواني : ١٢٤،١
(٨) دلائل الإعجاز ،الجرجاني: ٤٧٣.
(٩) دلائل الاعجاز، الجرجاني: ٩٧ .
(١٠) المصدر نفسه :٩٧.
(١١) دلائل الاعجاز، الجرجاني: ١١٨ .
(١٢) المصدر نفسه: ٢٥٥ ،١٢٣.
(١٣) مدخل الى كتابي عبد القاهر الجرجاني، محمد أبو موسى : ٥٣.
(١٤) النقد المنهجي عند العرب ، محمد مندور: ٣٢٥.
(١٥) دلائل الاعجاز، الجرجاني: ٥ .
(١٦) أسرار البلاغة، الجرجاني: ٥.
(١٧) المصدر نفسه : ٥ .
(١٨) دلائل الاعجاز، الجرجاني: ٥ .
(١٩)المصدر نفسه :٥ .
(٢٠) المصدر نفسه :٥ .
(٢١) المصدر نفسه :٥ .
(٢٢) دلائل الاعجاز، الجرجاني:٣٨ .
(٢٣) الجرجاني: ١٩٢- ١٩٧

المصادر والمراجع

١- البيان والتبيين، الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون الجزء الاول، مطبعة دار الفكر بيروت ، ط٤ .
٢- الحيوان، الجاحظ ، محمد عبدالسلام هارون، ط ١ ، مطبعة دار الفكر بيروت، القاهرة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠م .
٣- الشعر والشعراء: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ)، مطبعة دار الحديث، القاهرة ، مصر ١٤٢٣ هـ .
٤- الموازنة بين أبي تمام والبحتري، للامدي ، تحقيق السيد احمد صقر، دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ، مصر ١٩٧٣ ٠
٥- دلائل الإعجاز ،عبد القاهر الجرجاني ٤٧١هـ ، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي. مطبعة المدني بالقاهرة ، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م، ط ٣، ج.١
٦- عبد القاهر الجرجاني ونظرية النظم، عبد القادر حسين، مجلة الفكر العربي، ع٤٦، يونيو ١٩٦٧.
٧- مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ، محمد محمد أبو موسى ، مكتبة وهبه، القاهرة، مصر، ١٩٩٨.
٨- النقد المنهجي عند العرب ،محمد مندور، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
٩- أسرار البلاغة في علم البيان، الإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية (د.ت).